شذرات سلفية
(٤)

إتحاف النبلاء
بوصف مجالس العلماء

بقلم
السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

مكتبة طبرية
الرياض - النسيم - تلفون ٢٣٢١٠٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلي وسلم وبارك عليه وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى نبينا ﷺ وخير الأمور عوازمها وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

ما من شك في أن العلم النافع هو أول طريق الدعوة إلى الله تعالى به يعرف العبد الحلال من الحرام ، وبه يعرف كيف يعبد ربه وبه يميز سبيل المؤمنين من سبيل المجرمين ، وما أجمل أن يسارع المسلم لمعرفة ذلك في مجالس العلماء التي هي زينة الدنيا والآخرة فهي مجالس الهدى والنور ، ومجالس ذكر الله تعالى بها

يباهي الله ملائكته ، وفيها تنزل الطمأنينة والرحمة والسكينة ، وتحف الملائكة أصحابها ويذكر الله جلّاسَها في الملأ الأعلى .

وقد دعاني للكتابة عن مجالس العلماء ما رأيته في هذه الأعصار المتأخرة من العزوف عنها إلا من القليل وليت هذا القليل عرف آداب تلك المجالس فالتزم بها فإننا نرى أن أقل القليل هم الذين يعرفون حق تلك المجالس وآدابها ، ولما كانت مجالس العلماء قديماً ذات طابع فريد من الوقار والأدب أحببت في هذه الرسالة أن أنقل لأهل عصرنا لا سيما طلبة العلم صورة متواضعة عن وصف مجالس العلماء في الزمن الغابر حتى يراها كل طالب علم ويعرف كيف السبيل إلى التأدب بآداب تلك المجالس فلا خير في علم لا أدب فيه وقديماً قالوا الأدب ثمرة العلم والعلم إن لم ينفعك ضرك .

وثمة أمر آخر دعاني لكتابة هذه الرسالة ألا وهو تقصير كثير من بعض طلبة العلم وعدم تأدبهم بآداب مجالس العلماء في حِلق العلم ووقوع بعض الأخطاء الشنيعة منهم أثناء مجلس العلم وقد رأيت كثيراً من ذلك منهم وسيمر بك في هذه الرسالة طرفاً من هذه الأخطاء حتى تحذرها . هذا وقد وسمت هذه الرسالة بـ « إتحاف النبلاء بوصف مجالس العلماء » .

اسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه وأن يكتب لكاتبها وناشرها وقارئها الأجر التام في الدنيا والآخرة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كتبـــه

السيد عبد المقصود عبد الرحيم

الرياض من بـلاد نجـد
فـي ١٤١٣/٢/٦هـ

فضل مجالس الذكر والعلم والاجتماع عليها

لقد وردت الآثار الصحيحة عن رسول الله ﷺ تبين فضل الاجتماع على مجالس الذكر والعلم . فمن ذلك قوله ﷺ : « **ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله فيه إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده** »[1] .

ما أجمل هذا الفضل وأحسنه فإن خصلة واحدة من هذه الفضائل والخصال تدل على سعة رحمة الله تعالى وكريم عفوه وإحسانه وامتنانه ، فكيف بها مجتمعة . وفي حديث آخر يقول ﷺ : « **ما جلس قوم يذكرون الله عز وجل إلا ناداهم منادٍ من السماء : قوموا مغفوراً لكم ، قد بُدِّلت سيئاتكم حسناتٍ** »[2] .

---

(١) رواه مسلم (٢١/٧ - ٢٢ نووي) .
(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٤٣٤) عن أنس مرفوعاً وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢١٠) .

وهذه فضيلة عظيمة من فضائل الاجتماع على العلم وما أجمل أن يُغفر للمرء سيئاته وأن تبدل له حسنات .

ومن فضائل هذه المجالس أن الله تعالى يغفر للجالسين ولمن جاء أيضاً فجلس معهم ولم يقصد الجلوس أصلاً . حيث قال رسول الله ﷺ : « **إن لله ملائكة سياحون يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا هلموا إلى حاجتكم . قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا . قال فيسألهم ربهم تعالى ، وهو أعلم بهم ما يقول عبادي ؟ قال يقولون يسبحونك ويكبرونك ، ويحمدونك ويمجدونك . قال فيقول هل رأوني ؟ قال فيقولون لا والله ما رأوك ، قال فيقول فكيف لو رأوني ؟ قال فيقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادةً وأشد لك تحميداً وتمجيداً وأكثر تسبيحاً . قال فيقول ما يسألوني ؟ قال يسألونك الجنة فيقول وهل رأوها ؟ قال يقولون لا والله يا رب ما رأوها . قال فيقول فكيف لو أنهم رأوها . قال فيقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشدَّ لها طلباً وأعظم فيها رغبة . قال فيقول فمم يستعيذون ؟ قال من النار . قال يقول وهل رأوها ؟ قال يقولون لا والله**

ما رأوها . قال يقول فيكف لو رأوها ؟ قال يقولون لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة . قال يقول فأشهدكم أني قد غفرت لهم ، قال فيقول ملك من الملائكة فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجةٍ . قال هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم »[1] .

وقد ثبت أن الله تعالى يباهي بهم الملائكة ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : خرج معاوية على حلقة في المسجد فقال ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله تعالى . قال : آلله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوا آلله ما أجلسنا إلا ذلك . قال : إما أني لم استحلفكم تهمه لكم ، وما كان أحد بمنزلي من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثاً مني وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال : « **ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله تعالى ونحمده على ما هدانا للإسلام ومَنَّ به علينا . قال : آلله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك . قال : أما أني لم استحلفكم تهمه لكم ولكن أتاني جبريل فأخبرني أن الله تبارك وتعالى يباهي بكم الملائكة »[2] .**

---

(١) رواه البخاري (١١/٢٠٨ - ٢٠٩ فتح) ومسلم (١٧/١٤ - ١٥ نووي) من حديث أبي هريرة .

(٢) رواه مسلم (١٧/٢٢ - ٢٣ نووي) .

قال ابن القيم رحمه الله « فهذه المباهاة من الرب تبارك وتعالى دليل على شرف الذكر عنده ومحبته له ، وأن له مزية على غيره من الأعمال[1] .

(١) صحيح الوابل الصيب ص ١٣٨ .

أهمية مجالس العلماء

أعني بمجالس العلماء أولاً تلك المجالس التي يتدارس فيها الناس العلم الشرعي النافع لهم في دينهم ودنياهم . ولست أعني بمجالس العلماء مجالس تعلم العلوم الطبيعية أو الإنسانية ، فإن هذه العلوم لها مجال آخر .

ومن نافلة القول أقول إن كثيراً من الناس مع وجود التطور المادي والإنفجار العلمي في شتى المجالات العلمية في العلوم الفيزيائية والكيمائية والبيولوجية . أقول قد حرص كثير من الناس على الإنصراف إلى تَعُّلم تلك العلوم وقصرّوا في العلوم الشرعية ، بل ربما خرجت البعثاتُ إلى البلاد الكافرة لتستقي تلك العلوم وغالب المبتعثين لتحصيل تلك العلوم لا يتصفون بالإلتزام التام من ناحية السلوك والعقيدة الإسلامية مما يجعلهم فريسةً سهلة ومرتعاً خصْباً لنمو الأفكار الإلحادية الهدّامة التي تخالف الإسلام أصولاً وفروعاً ، بل زاد الطين بلةً وجود صنف من الناس حرصوا على تحصيل العلوم الإسلامية مثل اللغة العربية والنحو وغيرها من جامعات غربية كالسربون في

فرنسا ، أو كالفورنيا في أمريكا وغيرها من الجامعات ، ومما هو معلوم أن الحال إذا وصل إلى تلك الدرجة فهو مؤذن بخراب وهلاك ، فإن تعلم العلوم الشرعية ينبغي أن يكون على أيدي العلماء المسلمين العاملين الذين يخشون الله ويرجون وجهه ورحمته ، وإذا خرج العلم عنهم فلا يمكن تحصيله بحال من غيرهم ، فهم مصابيح الدُجى في الليلة الظلماء ودلائل الطريق إلى رب العالمين وورثة الأنبياء وخير الناس مقاماً بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأعظم الناس أجراً فكل فئةٍ من الناس تحتاج إليهم فلا ترى إنسان من أي طائفة إلا وهو محتاج إلى علمهم ، فالمهندس يسأل والطبيب والعامل في مصنعه والمرأة والرجل الكبير والشاب والشابة كلٌ يسأل العالم المسلم عما أشكل عليه في أمر دينه ، فالعلماء هم الأمناء على تبليغ رسالة الأنبياء وشرع الله تعالى . وإن من مقاييس صلاح العَالَم انتشار مجالس العلماء بين الناس وإقبال الناس على تعلم دينهم والسؤال عن أمور دينهم ، وقد أمر الله تعالى بسؤال أهل الذكر في موضعين من كتابه حيث قال : ﴿ **فَاسْئَلُو أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل : ٤٣] .

إن العبد في هذه الدنيا لا يستطيع أن يبنى معاملاته

ولا علاقاته بدون الرجوع إلى المنهج الإسلامي الذي يُقّوم له ما اعوّج من سلوك ويوضح له ما أشكل عليه من قول أو عمل . فكيف يستطيع العبد الشراء والبيع أم كيف يعرف الطريق إلى الولاء والبراء ، وكيف يعرف حدود ما أنزل الله من نكاح وطلاق ووقف وصلاة وزكاة وحج .

لا شك أن مجالس العلماء هي التي توضح ما سلف من معاملات وعبادات ، وكلما زاحم الإنسان بركبتيه في هذه المجالس كلما تعرض لرحمة من الله تعالى وطلب مرضاته سبحانه ، ومن علامة سعادة الناس إقبالهم على علمائهم ومزاحمة مجالسهم وسؤالهم عن أمور دينهم .

وما من شك أيضاً أن هذه المجالس تعد كالشجا في حلوق المبتدعة والمنافقين الذين لا يروقهم أن ترتفع راية الإسلام ، فهم يحاولون إحداث زعزعة وشروخ في جسور الثقة الموجودة بين الناس وعلمائهم ، يريدون إحداث فجوة بين الناس والشيوخ ، لما يعلمون من أهمية تلك المجالس التي تُبصّر الناس بأمور دينهم .

وقد حرص أعداء الإسلام على إزالة مجالس العلماء في شتى

أنحاء المعمورة وقد استخدموا في ذلك وسائل عدة منها الإعلام الفاسد المفسد الذي يتمثل في الجرائد والمجلات والرسوم الساخرة « الكاركاتير »[1] حيث يصورون بعض العلماء في مواقف مشينة وصور قبيحة ومن يتابع المجلات يجد من ذلك الكثير والكثير من هذه المفسدات التي يُرَادُ من ورائها تشويه صورة العلماء حتى ينجفل الناس عنهم ، ولا يأخذون العلم على أيديهم .

إن الأصل في التعلم هو التلقي عن العلماء في مجالس العلم كما كان الأمر على عهد رسول الله ونظراً لأن هذا التلقى يحدث نوعاً من الصلة والتقارب بين العالم والمتعلم ، فقد حرص العلماء على نشر العلم والإهتمام به من خلال المجالس التي كانوا يعقدونها في المساجد وغيرها .

وخلاصة القول أن أهمية مجالس العلماء والحضور فيها لا ينكرها إلا جاهل أو ضال وما أحسن ما قال سهل بن عبد الله رحمه الله « من أراد أن ينظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى

---

(١) ورحم الله الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك حيث قال « من استخف بالعلماء ذهبت آخرته ومن استخف بالأمراء ذهبت دنياه ، ومن استخف بالاخوان ذهبت مروءته » السير للذهبي (٨/٤٥٧) .

مجالس العلماء يجيء الرجل فيقول يا فلان إيش تقول في رجل حَلَفَ على امرأته بكذا وكذا ؟ فيقول طُلِّقت امرأته وهذا مقام الأنبياء فاعرفوا لهم ذلك »[1] .

(١) انظر أدب المفتي والمستفتي لابن الصلاح ص ٧٤ .

وصف المجالس في القديم

كانت مجالس العلماء في القديم لها طابعها الفريد المميز فالسعيد من لازمها وحافظ عليها والمحروم من حُرِمَها وحُرِمَ فضلها ، فقد كانت المجالس في القديم :

يعلوها الوقار والسكينة فلا صياح ولا صخب ولا جدال ولا تنازع : كيف لا تكون كذلك وقد ورد عن رسولنا ﷺ أنه كان في مجلسه كأن على روءس أصحابه الطير من السكينة والوقار[1] .

أورد الحافظ الذهبي عن أبي حازم رحمه الله قال : « لقد رأيتنا في مجلس زيد بن أسلم أربعين فقيها أدنى خصلة فينا التواسي بما في أيدينا وما رأيت فيه متماريين ولا متنازعين في حديث لا ينفعنا »[2] .

وأورد أيضاً عن أحمد بن سيار قوله « كان عبد الرحمن

---

(١) ورد ذلك في غير ما حديث .

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي (١٣٢/١) .

مهدي لا يُتحدّثُ في مجلسه ولا يُبري فيه قلم ولا يقوم أحد كأنما على رؤوسهم الطير أو كأنهم في الصلاة »[1] .

انظر أخي القارىء الكريم إلى هذا الأدب الجم في مجلس العلم ولقد تأسفت كثيراً وأنا أقرأ هذا الأثر وتذكرت حينما كنا نحضر مجلساً للفقه على بعض الشيوخ وقد دارت كؤوس القهوة والشاي أثناء مجلس العلم فتضايقت كثيراً من هذا المنظر ومن قلة مبالاة الطلبة وإنني على يقين أن العلم لا يرسخ في الأذهان بهذه الصورة التي تدل على قلة الأدب في مجلس العلم . وقد أعجبني بعض الشيوخ حفظهم الله وكنت في مجلسه في المسجد النبوي الشريف وإذ برجل قام متطوعاً - ظن ذلك أمراً حسناً - أقول قام هذا الرجل ليسقي الجالسين في المجلس وسرعان ما أغلظ الشيخ له في القول . وقال إن هذا ما تعلم أدب العلم وما علم كيف يطلب العلم وما عرف كيف جلس جبريل بين يدي رسول الله ﷺ ليعلم الناس كيف يتلقون العلم ويتأدبون في مجالس العلم . وعلى الفور جلس هذا الرجل .

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي (٣٣١/١) .

لقد كان العالم مهيباً في مجلس العلم وهذه الهيبة كساها الله هؤلاء الأجلة من العلماء بسبب خشيتهم لله تعالى وخوفهم منه ، فعلى قدر خوفهم من الله كساهم الله هيبة في قلوب الناس .

قال الإمام الأعمش رحمه الله « كنا نهاب إبراهيم كما يُهاب الأمير »[1] .

وقال عبد الرحمن بن واقد « رأيت باب مالك بالمدينة كأنه باب الأمير »[2] .

وقال ابن سرين عن عبد الرحمن بن أبي ليلى « جلست إليه وأصحابه يعظمونه كأنه أمير »[3] .

وقال محمد بن عمر كان مالك يأتي المسجد يشهد الصلوات ... وكان يجلس في منزله على ضِجَاعٍ له ونمارق مطروحة يمنةٍ ويسرة لمن يأتيه وكان مجلسه مجلس وقار وحلم وعلم وكان رجلاً مهيباً ليس في مجلسه شيء من المراء واللغط

---

(١) تذكرة الحفاظ (٧٤/١) .
(٢) تذكرة الحفاظ (٢٠٨/١) .
(٣) تذكرة الحفاظ (٥٨/١) .

ولا رفع صوت ... كان له كاتب قد نسخ كتبه يقال له حبيب يقرأ للجماعة فليس أحد ممن حضره يدنو ولا ينظر في كتابه ولا يستفهم هيبه لمالك واجلالاً[1] .

ولماذا نذهب بعيداً فكما قلنا إن هذه الهيبة التي كساها الله لهؤلاء الأجلة من العلماء كانت بسبب خشيتهم من الله وتقواهم وكلما اشتد الخوف في قلب العالم كلما اشتدت الهيبة في قلوب الناس منه فمن خاف الله خافه كل شيء ومن لم يخف الله خاف من كل شيء انظر إلى رسول الله ﷺ حينما دخل عليه رجل فلما رآه هابه واصابته رعدة فقال له النبي ﷺ « **هوّن عليك فإني لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد** »[2] .

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله « لزمت هشيماً أربع سنين ما سألته عن شيء إلا مرتين هيبة له »[3] .

وفي ترجمة محمد بن رافع قال : قال الحافظ جَعفر بن أحمد ما رأيت في المحدثين أهيب من محمد بن رافع كان يستند إلى

---

(١) تذكرة الحفاظ (٢٢١/١) .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٣١٢) وغيره وصححه الألباني في السلسلة (١٨٨٦) .

(٣) تذكرة الحفاظ (٢٤٩/١) .

شجرة الصنوبر في داره فيجلس العلماء بين يديه على مراتبهم وأولاد الظاهرية ومعهم الخدم كأن على رؤوسهم الطير فيأخذ في الكتاب ويقرأ بنفسه ولا ينطق أحداً ولا يتبسم اجلالاً له فإن نطق أحد قام[1] .

سبحان الله أرأيت أخي القارئ الكريم مدى احترام العالم واجلاله لمجلس العلم وكذلك المتعلم وقد استوقفتني فقرة هنا في هذا الأثر السابق وهي قوله « كان يستند إلى شجرة الصنوبر في داره » فقلت في نفسي سبحان الله إلى هذا الحد كانت البساطة في بيوتهم فلم يكن همهم الأرائك الفاخرة ، ولا السيارات الفخمة ، ولا المناصب الزائفة ، ولذلك أخرجت مجالسهم الأبطال في الحروب والشجعان في الميدان والفرسان الأبطال الذين دافعوا عن الإسلام ونشروه في البلاد .

حدثنا بعض الدعاة – وهو الآن في العالم الآخر – رحمه الله يقول لقد رأيت في رحلة دعوية لي من إحدى المقاطعات في القارة الهندية مجالس للعلماء تحت الأشجار[2] في غابات يعلمون

---

(١) تذكرة الحفاظ (٢/٥٠١) .

(٢) وفي الجمهوريات الإسلامية التي وقعت تحت الحكم الشيوعي كان العلماء يعقدون مجالسهم في ما يعرف بالحجرات داخل البيوت حيث كان الشاب يتعلم العلم الشرعي داخل هذه =

الأطفال الصغار كتاب الله ويحفظونهم أحاديث رسول الله وكان يغلب عليهم التواضع في الملبس والهيئة ثم قال لقد قال لي بعضهم إن ما ها هنا يقارب إثنا عشر ألف طفل يتعلمون تحت هذه الأشجار كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فما فرحت يومئذ فرحي بهذا الخبر السار .

وفي ترجمة إبراهيم بن أبي طالب قال الإمام أحمد بن إسحق الفقيه ما رأيت في المحدثين أهيب من إبراهيم بن أبي طالب كنا نجلس كأن على رؤوسنا الطير لقد عطس أبو زكريا العنبري فأخفى عُطَاسَه فقلت له سرًا لا تخف فلست بين يدي الله[1] .

تبارك الله رب العالمين إلى هذا الحد بلغ توقير العالم عندهم . فأين هذا الأدب من المجالس اليوم التي لا يراعى في كثير منها حرمة العلم والعلماء .

= الحجرات ولا يخرج منها وربما جلس فيها السنة والسنتين وذلك حتى لا يلفت أنظار البوليس الشيوعي الذي كان يطارد المسلمين عامة وأهل العلم على وجه الخصوص .

(١) تذكرة الحفاظ (٦٣٨/٢) .

وصف علماء تلك المجالس :

كانوا حقاً من علماء الآخرة سيماهم الخشوع والخضوع لله رب العالمين تعلوهم السكينة والوقار قد أثّر فيهم العلم وأثمر أدباً وعملاً صالحاً وتقوى لله عز وجل . يصدعون بالحق غير هيابين ولا يبالون أرضيَ زيدٌ أم سخط عمرو . وإليك طرفاً من أوصافهم من خلال تراجمهم رحمهم الله تعالى .

ففي ترجمة سعيد بن عبد العزيز رحمه الله : قال أبو نصر الفراديسي « كنت أسمع وقع دموعه على الحصير في الصلاة »[1] .

وفي ترجمة إسرائيل بن يونس وكنيته أبو إسحاق : قال شقيق البلخي : « أخذت الخشوع[2] من إسرائيل كنا حوله [أي في مجلس العلم] لا يعرف مَنْ عن يمينه ولا من عن شماله من تفكره في الآخرة ، فعلمت أنه رجل صالح »[3] .

---

(١) تذكرة الحفاظ (٢١٩/١) .

(٢) سبحان الله هكذا يكون العلم قال العلامة ابن الجوزي في صيد الخاطر ص ٢٥٩ « وقد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سَمْتِهِ وهديه لا لإقتباس علمه وذلك أن ثمرة علمه هديه وسمته » .

(٣) تذكرة الحفاظ (٢١٥/١) .

وفي ترجمة وكيع بنا لجراح : قال سلم بن جنادة « جلست وكيعاً سبع سنين فما رأيته يزق ولا مس حصاة ولا جلس مجلسه فتحرك ولا رأيته إلا مستقبل القبلة وما رأيته يحلف بالله »[1] .

وفي ترجمة على بن ممشاد بن سحنون بن نصر : قال بعضهم عنه صحبته في السفر والحضر « فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئة »[2] .

وفي ترجمة على بن محمد بن سهل أبو الحسن الصائغ أحد العلماء المحدثين الزهاد أصحاب الكرامات : « قال بعضهم شاهدت أبا الحسن يصلي في الصحراء في شدة الحر ونسرٌ قد نشر عليه جناحَه يظله من الحر »[3] .

وفي ترجمة يزيد بن هارون الإمام : قال الحسن بن عرفه « رأيت يزيد بن هارون بواسط من أحسن الناس عينيه ثم رأيته بعين واحدة ثم رأيته أعمى فقلت يا أبا خالد ما فعلت العينان الجميلتان ؟ قال ذهب بها بكاء الأسحار »[4] .

---

(١) تذكرة الحفاظ (٣٠٦/١) .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٢٣٦/٦) .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٢١٧/٦) .
(٤) تذكرة الحفاظ (٧٩٠/٣) .

هذه أمثلة للعلماء العاملين الذين تنزل الطمأنينة والرحمة بذكرهم وتتعطر المجالس بمناقبهم وهم حقاً الذين يؤثّرون بأفعالهم قبل أقوالهم يؤثّرون في الناس وفي طلاب العلم بصفة خاصة .

واستمع إلى هذه التجربة من العلامة ابن الجوزي علّك تستفيد منها وتحاول أن تشد بيديك على العالم العامل . يقول العلامة ابن الجوزي رحمه الله « لقيت مشايخ ، أحوالهم مختلفة يتفاوتون في مقاديرهم في العلم ، وكان أنفعهم لي في صحبته العامل منهم بعلمه وإن كان غيره أعلم منه .

ولقيت جماعة من علماء الحديث يحفظون ويعرفون ولكنهم كانو يتسامحون بغيبة يخرجونها مخرج جرح وتعديل ، ويأخذون على قراءة الحديث أجره ، ويسرعون بالجواب لئلا ينكسر الجاه ، وإن وقع خطأ .

ولقيت عبد الوهاب الأنماطي فكان على قانون السلف لم يسمع في مجلسه غيبة ولا كان يطلب أجراً على سماع الحديث وكنت إذا قرأت عليه أحاديث الرقائق بكى واتصل بكاؤه . فكان وأنا صغير السن حينئذ يعمل بكاؤه في قلبي ويبني قواعد

الأدب في نفسي وكان على سمت المشايخ الذين سمعنا أوصافهم في النقل .

ولقيت الشيخ أبا منصور الجواليقي ، فكان كثير الصمت ، شديد التحري فيما يقول متقنا محققاً ربما سئل المسألة الظاهرة التي يبادر بجوابها بعض غلمانه فيتوقف فيها حتى يتيقن وكان كثير الصوم والصمت فانتفعت برؤية هذين الرجلين أكثر من انتفاعي بغيرهما .

ففهمت من هذه الحالة الدليل بالفعل أرشد من الدليل بالقول ، ورأيت مشايخ كانت لهم خلوات في انبساط ومزاح ، فراحوا عن القلوب وبدد تفريطهم ما جمعوا من العلم فقلّ الانتفاع بهم في حياتهم ، ونُسوا بعد مماتهم فلا يكاد أحد أن يلتفت إلى مصنفاتهم ، فالله الله في العلم بالعمل فإنه الأصل الأكبر والمسكين كل المسكين من ضاع عمره في علم لم يعمل به ، ففاتته لذات الدنيا وخيرات الآخرة ، فقدم مفلساً مع قوة الحجة عليه »[1] ا . هـ .

لقد كان العلماء القدماء رحمهم الله مثالاً يحتذى تطيب

---

(١) صيد الخاطر ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

القلوب بذكرهم ومن أولئك يؤخذ العلم ورحم الله من قال « من لم تنفعك رؤيته لم تنفعك رواياته » .

وقال آخر « إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم » ورحم الله من قال :

لقد كانوا إذا عدوا قليلا ∴ فقد صاروا أقل من القليل

ولقد كان السلف رحمهم الله ينظرون إلى سمت الرجل وهديه وصلاته وعبادته قبل الأخذ عنه . فأين هذا مما وقع في العصور المتأخرة التي كثرت فيها الفتن وأخذ فيها بعض الناس عن أهل البدع ومن ترك الفرائض وادّعى العلم .

ولقد قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في بيان أصناف الناس وموقفهم من الهدى الذى أرسل الله به محمداً ﷺ . قال الحافظ « إن تَرَكَ الفرائض فهو فاسق لا يجوز الأخذ عنه [يعني أخذ العلم] ولعله يدخل في عموم (من لم يرفع بذلك رأساً) »[1] .

وقد بين النبي ﷺ في الحديث « **أن من اشراط الساعة أن**

---

(١) فتح الباري (٢١٣/١) .

يلتمس العلم عند الأصاغر»[1] وقد فسره ابن المبارك بأنهم أهل البدع .

ورحم الله الإمام مالك حيث يقول « لا يؤخذ العلم عن أربعة وخذوا ممن سواهم لا يؤخذ من سفيه معلن بالسفه وإن كان من أروى الناس ، ولا من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه ، ولا من كذّاب يكذب في أحاديث الناس وإن كنت لا تتهمه بكذب على رسول الله ﷺ ،ولا من شيخ له عبادة وفضل إذا كان لا يعرف الحديث »[2] .

وصف العلماء عند سماعهم للذكر أو لحديث رسول الله ﷺ في مجلس العلم قديماً :

لقد كان مجلسهم مجلس عظة وعبرة وتفكر ولقد كان يغلب عليهم البكاء عند سماع آية أو حديث أو ذكرهم رسول الله ﷺ .

---

(١) جزء من حديث رواه ابن المبارك في الزهد ص ٦١ وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٦٩٥) .

(٢) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة والإلماع للقاضي عياض ص ٦٠ .

فقد كان ابن عمر رضي الله عنه إذا ذكر رسول الله ﷺ بكى[1] .

وفي ترجمة محمد بن المنكدر رحمه الله : قال الإمام مالك « كان محمد بن المنكدر سيد القراء لا يكاد أحد يسأله عن حديث إلا كان يبكي »[2] .

وفي ترجمة أيوب بن أبي تميمة السختياني : قال مالك رحمه الله كنا ندخل على أيوب فإذا ذكرنا له حديث النبي ﷺ بكى حتى نرحمه ، ولقد كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير الدعابة والتبسم فإذا ذكر عنده النبي ﷺ احتفز وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهاره[3] .

وفي ترجمة عامر بن عبد الله بن الزبير : قال الإمام مالك ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير فإذا ذكر عنده النبي

---

(١) أورده في الشفا (٢/٩٣) .
(٢) أوردة هذا الأثر للقاضي عياض في الشفا (٢/٩٣) .
(٣) أوردة في الشفا (٢/٩٤) .

ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينه دموع[1] .

وقال في حق عبد الرحمن بن القاسم : ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ فيُنظر إلى لونه كأنه نُزِف منه الدم . وقد جف لسانه في فمه هيبةً منه لرسول الله ﷺ[2] .

وقال في حق صفوان بن سليم : ولقد كنت آتي صفوان بن سليم وكان من المتعبدين المجتهدين فإذا ذُكر النبي ﷺ بكى فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه[3] .

قلت وصفوان بن سليم رحمه الله قد بلغ قصب السبق في العبادة والزهد وكانت له مكانة خاصة عند الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حيث قال فيه صفوان بن سليم في الثقات يستشفى بحديثه وينزل القطر من السماء بذكره[4] .

وقال سفيان رحمه الله أخبرني الحفّار الذي يحفر قبور أهل

---

(١) ، (٢) من الشفا للقاضي عياض (٢/٩٤، ٩٥) .
(٣) أوردة في السير للذهب (٥/٣٦٥) .
(٤) أوردة في السير (٥/٣٧٧) .

المدينة . قال حفرت قبر رجل فإذا أنا قد وقعت على قبر فوافيت جمجمة فإذا السجود قد أثر في عظام الجمجمة فقلت لإنسان قبر من هذا ؟ فقال أوما تدري ؟ هذا قبر صفوان بن سليم .

وقال أبو إبراهيم التجيبي رحمه الله واجب على كل مؤمن متى ذكره (أي النبي ﷺ) أو ذُكِر عنده أن يخضع ويخشع ، ويتوقر ، ويسكن من حركته ويأخذ في هيبته واجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه .. ويتأدب بما أدبنا الله به[1] .

قال القاضي عياض رحمه الله « وهذه كانت سيرة سلفنا الصالح وأئمتنا الماضين رضي الله عنهم »[2] .

وأحب لك أخي القارىء أن تقارن بين هذا الهدى وبين ما يحدث في مجالسنا اليوم حتى تلاحظ الفرق الشاسع بيننا وبين أدب السلف الصالح رضوان الله عليهم وحشرنا في زمرتهم آمين .

---

(١) الشفا (٢/٩١ - ٩٢) .
(٢) نفس المصدر السابق ص ٩٢ .

كانت المجالس لا مجال فيها للغيبة بحال :

ففي ترجمة سعيد بن جبير رحمه الله : قال بعضهم كان لا يدع أحداً يغتاب عنده[1] .

ولقد رأينا في زماننا هذا نوعاً من الغيبة الخفية الدقيقة التي تقع من كثير من طلبة العلم حيث يقول أحدهم في مجلس العلم وهو يطرح سؤالاً على الشيخ يا شيخ ما تقول في شخص يزعم كذا وكذا ، وهذا الطالب يعلم أن القائل بهذا القول هو أحد العلماء المشهُورين ولكن انظر إلى قوله « يزعم » وبئس مطية القوم زعموا كما ثبت في حديث رسول ﷺ[2] ألا فليتق الله طلبة العلم ويحاسبوا أنفسهم على ما يبدر منهم .

وما أحسن ما قال عطاء بن أبي رباح إن من كان قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو أن تنطق في معيشتك التي لا بد لك منها ، اتنكرون أن عليكم حافظين كراماً كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيدٌ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد أما يستحي

---

(١) تذكرة الحفاظ (٧٧/١) .

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد رقم (٣٧٧) وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٨٦٦) .

أحدكم لو نشرت صحيفته التي أملى صدر نهاره وليس فيها شيء من أمر آخرته[1] .

وما أجمل ما قال ابن عون أيضاً « ذكر الناس داء وذكر الله دواء » .

قال الحافظ الذهبي معلقاً « أي والله فالعجب منا ومن جهلنا كيف ندع الدواء ونفتح الداء ؟ قال الله تعالى ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾ [البقرة : ١٥٢] وقال ﴿ **وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ** ﴾ [العنكبوت : ٤٥] وقال ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد : ٢٨] ولكن لا يتهيأ ذلك إلا بتوفيق الله ومن أدمن الدعاء ولازم قرع الباب فتح له »[2] .

وكثيراً ما تخرج الغيبة خاصة بين بعض طلاب العلم في ثوب الجرح والتعديل فليتنبه لذلك . ورحم الله يونس بن عُبَيد حيث قال « خلصتان إذا صلحتا من العبد صلح ما سواهما صلاته ولسانه »[3] .

---

(١) أوردة في السير (٥/٨٦) .
(٢) السير (/) .
(٣) أوردة في السير (٦/٣٠٠) .

قلت وقد ورد في ترجمة يونس بن عبيد رحمه الله « أن جاراً له قال ما رأيت أكثر استغفاراً من يونس كان يرفع طرفه إلى السماء ويستغفر »[1] .

وصف أعداد الناس الذين كانوا يحضرونه تلك المجالس :

مما هو معلوم أن اقبال الناس في العصور المتقدمة على مجالس العلم كان اقبالاً منقطع النظير لأنهم كانوا يحبون العلم والعلماء ويحبون مجالسة العلماء فكانوا يحرصون على حضور تلك المجالس النورانية وكانت مزدحمة بالحاضرين بل كان المكان يضيق في بعض الأحيان لكثرة العدد . وكانوا يزدحمون على العالم ليسألونه وكأنه والله أمير نعم ونعم الأمير . وإليك طرفاً من وصف عدد الحاضرين في تلك المجالس من خلال سيرة العلماء رحمهم الله .

ففي ترجمة أبي مسلم الكجي الحافظ المسند إبراهيم بن عبد الله بن مسلم البصري صاحب السنن . قال أحمد بن جعفر الختلي لما قدم الكجي بغداد أملى في رحبة غسان [مكان هناك]

---

(١) السير (٦/٢٩٢) .

فكان في مجلسه سبعة مستملين يبلغ كل واحد منهم الآخر ويكتب الناس عنه قياماً ثم مسحت الرحبة [أي عرف مساحتها] وحسب من حضر بمحبرة فبلغ ذلك نيفاً وأربعين ألف محبرة سوى النظارة[1] .

ولعلك تستهول هذه القصة ولكن اطمئنك بأن هذه القصة ثابتة وصحيحه إلى من حكيت عنه قال الحافظ الذهبي بعدما أوردها « هذه حكاية ثابتة رواها الخطيب في تاريخه عن بشرى الفاتني أنه سمع الختلي يقولها »[2] .

وفي ترجمة العلامة الحافظ شيخ الوقت أبي بكر جعفر بن محمد بن الحسن الفريابي صاحب التصانيف . قال ابن عدي : « كنا نشهد مجلس الفريابي وفيه عشرة آلاف أو أكثر »[3] .

وقال أبو الفضل الزهري لما سمعت من الفريابي كان في مجلسه من أصحاب المحابر من يكتب نحو عشرة آلاف إنسان ما بقي منهم غيري هذا سوى من لا يكتب[4] .

---

(١) تذكرة الحفاظ (٢/٢٦١) .
(٢) السير (٢/٢٦١) .
(٣) تذكرة الحفاظ (٢/٦٩٣) .
(٤) تذكرة الحفاظ (٢/٦٩) .

وقال أبو حفص الزيات لما ورد الفريابي إلى بغداد استقبل بالطبارات والزبازب ثم أوعد له الناس إلى شارع المنار ليسمعوا منه فحرز من حضر مجلسه لسماع الحديث فقيل كانوا ثلاثين ألفاً وكان المستملون ثلاث مائة وستة عشر[1].

وفي ترجمة الإمام المحاملي رحمه الله : قال أبو بكر الداودي كان يحضر مجالس المحاملي عشرة آلاف رجل[2].

وأورد الحافظ ابن كثير في ترجمة أبي الطيب سهل بن محمد الصعلوكي الفقيه الشافعي إمام أهل ينسابور قال كان يحضر مجلسه خمسمائة محبرة[3].

وربما يقول قائل هذه المجالس التي كان يعقدها العلماء ويحضرها كثير من الناس بهذه الأعداد أكثرها مجالس حديث واملاء ونحن نقول بل وكثير منها مجالس وعظية وتذكير أيضاً فانظر مثلاً على سبيل المثال كتب ابن الجوزي رحمه الله وما اشتملت عليه من مجالس الوعظ التي تصدع القلوب اقرأ على سبيل المثال كتاب التبصرة وصيد الخاطر وغيرها وإليك طرفاً

---

(١) تذكرة الحفاظ (٦٩٣/٢).

(٢) السير (٨٥/٣).

(٣) البداية والنهاية (٣٤٦/٦).

من كلام ابن الجوزي في وصف مجلس الوعظ .

يقول رحمه الله « ما زالت نفسي تنازعني بما يوجبه مجلس الوعظ وتوبة التائبين ورؤية الزاهدين إلى الزهد والانقطاع عن الخلق والانفراد بالآخرة فتأملت ذلك فوجدت عمومه عن الشيطان فإن الشيطان يرى أنه **لا يخلو لي مجلس من خلق لا يحصون** يبكون ويندبون على ذنوبهم ويقوم في الغالب جماعة يتوبون ... إلخ »(١) .

ثم أقول اتدري أخي القارئ الكريم كم كان سن ابن الجوزي في أول مجلس تكلم فيه للوعظ ؟ كان سنه إذ ذاك ثلاثة عشرة سنة(٢) في سنة خمسمائة وعشرون هجرية .

ورحم الله من قال « من خدم المحابر خدمته المنابر »(٢) .

وأورد الحافظ ابن كثير في ترجمة إسماعيل بن محمد الإمام ابن القاسم الطلحي أنه كان إماماً في الحديث والفقه والتفسير واللغة حافظاً متقناً توفى ليلة عيد الأضحى وقد قارب الثمانين

---

(١) صيد الخاطر ص ٥٢ .
(٢) البداية والنهاية (٢١٠/١٢) .
(٣) هو العلامة محمد بن عبد الباقي راجع البداية والنهاية (٢٣٣/١٢) .

كتب وأملى باصبهان قريباً من ثلاثة آلاف مجلس[1] .

وفي ترجمة إسماعيل بن أحمد بن عمر الإمام أبي القاسم قال الحافظ ابن كثير أملى بجامع المنصور مجالس كثيرة نحو ثلاثمائة مجلس[2] .

قلت وهذا في مسجد واحد فما بالك ببقية المساجد التي تعقد فيها مجالس العلم بل وما بالك في رحلاته التي قام بها . فسبحان الملك الوهاب الذي لا حدود لفضله ولا لعطائه منتهى .

واستمع إلى كلام الحافظ الذهبي رحمه الله وهو يصف حال الطبقة الثامنة في كتابه « تذكرة الحفاظ » قال رحمه الله « هم ثقات الحفاظ ولعل قد أهملنا طائفة من نظرائهم فإن المجلس الواحد في هذا الوقت كان يجتمع فيه أزيد من عشرة آلاف محبرة يكتبون الآثار النبوية ويعتنون بهذا الشأن وبينهم نحو مائتي إمام قد برزوا وتأهلوا للفتنا فلقد تفانى أصحاب الحديث وتلاشوا ، وتبدل الناس بطلبة يهزأ بهم أعداء الحديث والسنة ،

---

(١) البداية والنهاية (٢٣/١٢) .

(٢) نفس المصدر السابق (٢٣٤/١٢) .

ويسخرون منهم ، وصار علماء العصر في الغالب عاكفين على التقليد في الفروع ، من غير تحريرها ، ومكبين على عقليات من حكمة الأوائل ، وآراء المتكلين ، من غير أن يتعقلوا أكثرها فعّم البلاء ، واستحكمت الأهواء ولاحت مبادى رفع العلم وقبضه من الناس فرحم الله امرءًا أقبل على شأنه وقصر من لسانه وأقبل على تلاوة قرآنه ، وبكى على زمانه وأدمن النظر في الصحيحين وعبد الله قبل أن يبغته الأجل اللهم فوفق وارحم »[1] .

قلت : وإذا كان هذا الوصف في عهد الإمام الذهبي لمن اتسموا بالعلم وفقدوا حقيقته فماذا عساه أن يقول لو رأى ما في زماننا اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا .

ولقد كان الناس في الأزمان الغابرة في عهد السلف الصالح يحرصون كل الحرص على حضور مجالس العلماء لأن تلك المجالس تحيى القلوب بالإيمان ، كما يحيي المطر الأرض الميتة . لقد كان لمقولات العلماء أثر كبير في نفوس طلبة العلم ومن يحضر تلك المجالس فكنت تسمع مثلاً هذه المقولة « من غاب

---

(١) تذكرة الحفاظ (٢/٥٢٩ ، ٥٣٠) .

خاب وأكل نصيبه الأصحاب » ولا شك أن تلك المقولة وغيرها تحفز طالب العلم على استمرار الحضور في تلك المجالس المشرقة وكلما ابتعد المرء عن تلك المجالس كلما خيم عليه سلطان الجهل والغفلة . نسأل الله العافية .

لقد كان العلماء في الزمن الغابر هم الملوك على الملوك حقاً وكانت الملوك تخافهم وتحسب لهم ألف حساب ذلك لأن أهل العلم قد صانوه عن دنس أو أغراض الدنيا فلم يخلطوه برياء ولا عرض دنيوي زائل ولذلك كان الملوك يخشونهم وكانوا مطيعين لهم .

ففي ترجمة أبي عمرو الخفَّاف وهو الإمام الحافظ الشيخ أحمد بن نصر بن إبراهيم النيسابوري . قال محمد بن المؤَّمل بن الحسن الماسرجس سمعت أبا عمرو الخفاف يقول كان عمر بن الليث الصفار [وكان سلطانا] يقول لي يا عم متى ما علمت شيئاً لا يوافقك فاضرب رقبتي إلى أن أرجع إلى هواك . وقد علق الذهبي على ذلك بقوله « كذا فليكن السلطان مع الشيخ »[1] .

---

(١) السير (٥٦٢/١٣) .

سبحان الله أين هذا من حكام السوء في عصرنا الحاضر الذي لا همّ لهم إلا محاربة العلماء والتضييق عليهم في الدعوة إلى الله تعالى .

ومتى رأيت السلطان أو الملك يوقر العلماء ويحترمهم ويجلهم فاعلم أنه على خير ومتى شاور العلماء في أمره فهو على الجادة . ورحم الله زماناً كان مجلس السلطان عامراً بالعلماء والفقهاء .

ففي ترجمة نظام الملك الوزير الحسين بن على بن إسحاق أبو على وزير الملك ألب أرسلان كان مجلسه عامراً بالفقهاء والعلماء بحيث يقضي معهم غالب نهاره فقيل له إن هؤلاء شغلوك عن كثير من المصالح فقال هؤلاء جمال الدنيا والآخرة ، لو اجلستهم على أرسى لما استكثرت ذلك[1] وإليه تنسب المدرسة النظامية بالشام وقد درّس فيها عدد من العلماء .

وكان يحضر مجالسهم الأمراء والوزراء فيجلسون حيث انتهى بهم المجلس وكان العلماء رحمهم الله يعلمون الأمراء التواضع بذلك .

---

(١) البداية والنهاية (١٤٩/١٢) .

ففي ترجمة يزيد بن عبد الملك قال ابن جابر أقبل يزيد بن عبد الملك إلى مجلس مكحول ، فهممنا أن نُوسِّع له فقال مكحول دعوه يتعلم التواضع[1] .

سبحان الله كم كان العلماء في القديم يجّلون العلم ويصونوه .. ولا تعجب فإن من صان العلم صانه وذل له رقاب الجبابرة ، لقد كان العلماء محترمين من قبل الحكام في قديم الزمان .

ففي ترجمة هارون الرشيد الخليفة العباسي : عن أبي معاوية الضرير وهو محمد بن خازم الإمام العلامة قال صب على يدي بعد الأكل شخص لا أعرفه فقال الرشيد تدري من يصب عليك ؟ قلت لا . قال أنا إجلالاً للعلم[2] .

لقد كان العلماء في الزمان الغابر لهم مكانتهم في قلوب العامة والخاصة . حيث كان الناس يلتفون حولهم عند كل معضلة في دينهم يذكر الشيخ الحسن الندوي[3] حفظه الله بعض القصص من سيرة العلماء في القارة الهندية في العصور

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٥٠/٥) .

(٢) أوردة في السير (٢٨٨/٩) وهو في تاريخ بغداد (٨/١٤) .

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ .

المتأخرة حيث بين مكانة العلماء هناك وما كانوا عليه من المكانة والحشمة يقول حفظه الله « كان السيد آدم البنورى الهندي (م ١٠٥٣ هـ) دفين البقيع يأكل على مائدته كل يوم ألف رجل ، ويمشي في ركابه ألوف الرجال ومئات من العلماء ولما دخل السيد في لاهور عام ١٠٥٣ كان في معيته عشرة آلاف من الأشراف والمشايخ وغيرهم ... وهذا الشيخ محمد معصوم (م ١٠٧٩) ابن الشيخ الكبير أحمد السرهندي قد بايعه[1] وتاب على يده تسعمائة ألف من الرجال واستخلف في دعاء الخلق إلى الله وارشاد الناس وتربيتهم الدينية سبعة آلاف من الرجال .

وهذا الشيخ محمد زبير السرهندي (م ١١٥١) كان إذا خرج ألقى له الأغنياء الشيلان والمناديل حتى لا يطأ الأرض ، وإذا خرج لعيادة مريض أو لبعض شأنه خرج في ركابه الأغنياء والأمراء فكان موكباً مثل مواكب الملوك » .. ثم يحكي طرفاً من حياة العلامة الداعية أحمد بن عرفان مصلح الهند (١٢٤٦ هـ) الذي بث الدعوة إلى التوحيد واتباع السنة والجهاد فيقول

---

(١) لا ندري ما وجه تلك البيعة وعلام .

الشيخ أبو الحسن عنه «وخطب السيد (أحمد بن عرفان) في الناس في كلكتة خمسة عشر أو عشرين يوماً وكان يحضر هذه المواعظ نحو ألفين من وجهاء البلد والعلماء والشيوخ فضلا عن عامة الناس والدهماء. وكذلك رفيقه الشيخ عبد الحي التهانوى كان يذّكر كل يوم جمعة ويوم الثلاثاء بعد صلاة الظهر إلى العصر والناس يتساقطون عليه كالفراش، ويسلم كل يوم عشرة أو خمسة عشر رجلاً من الكفار وكان من تأثير هذه المواعظ ودخول الناس في الدين وانقيادهم للشرع أن تعطلت تجارة الخمر في كلكتة وهي كبرى مدن الهند ومركز الانجليز، وكسدت سوقها وأقفرت الحانات واعتذر الخمارون عن دفع ضرائب الحكومة متعللين بكساد السوق وتعطل تجارة الخمر[1].

وهكذا كان للعلماء دور كبير في توجيه الناس وحثهم على الاتباع ونبذ المخالفات ورفع راية الجهاد في سبيل الله. نسأل الله تعالى أن تعود للعلماء مكانتهم، وأن يحفظهم من كل مكروه وسوء.

---

(١) المصدر السابق ص ٣٤٠.

ويقول ابن الجوزي رحمه الله وهو يُعَدّد نعم الله عليه « كم قد قصدني عدو فصَّده عني ، وإذا رأيته قد نصرني وبصرني ، ودافع عني ، ووهب لي ، وقوى رجائي في المستقبل بما قد رأيت في الماضي .

لقد تاب على يدي في مجالس الذكر أكثر من مائتي ألف وأسلم علي يدي أكثر من مائتي نفس . وكم سالت عين متجبر بوعظي لم تكن تسيل ويحق لمن تلمح هذا الانعام أن يرجو التمام . وربما لاحت أسباب الخوف بنظري إلى تقصيرى وزللي .

لقد جلست يوماً فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف ما فيهم إلا من قَدْ رَقَّ قلبه ، أو دمعت عيناه ، فقلت لنفسي : كيف بك إن نجو وهلكت ، فصحت بلسان وجدي : إلّهي وسيدي إن قضيت عليّ بالعذاب غداً فلا تعلمهم بعذابي صيانة لكرمك لا لأجلي ، لئلا يقولوا عذب من دل عليه ، إلهي قد قيل لنبيك ﷺ اقتل ابن أبّي المنافق فقال لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه إلهي فاحفظ حين عقائدهم فيّ بكرمك أن تعلمهم بعذاب الدليل عليك »[1] .

---

(١) صيد الخاطر ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

وفي ترجمة الحافظ أبي بكر بن النسيابوري عبد الله بن محمد بن زياد . قال عبد الله بن بطه الحافظ «كنا نحضر مجلس ابن أبي زياد وكان يحرز من يحضره من أصحاب المحابر ثلاثين ألفاً»[1] .

وفي ترجمة أبي عبد الله الضبي القاص الشافعي الحسيني بن إسماعيل بن محمد كان يحضر مجلسه نحو من عشرة آلاف[2] .

إن المتأمل في هذه الأعداد ليعجب كل العجب من حرص أولئك على التعلم على العكس اليوم فيما نرى ونسمع من حضور ١٠٠ (مائة) ألف أو أكثر لمباراة كرة قدم تقام بين فريق وآخر لا فائدة فيها مرّجوة غير تضييع الصلوات وإثارة النعرات الجاهلية والتحزبات المقيتة التي يراد من ورائها شحن القلوب بالضغائن والأحقاد .

وأنا أكتب هذه السطور في وقت إقامة الدورة الأولمبية في برشلونة في أسبانيا ديار الأندلس التي كانت ذات يوم مناراً يشع منها الإسلام والهدى ، وإن تعجب فعجب من أحد

(١) البداية والنهاية (١٩٩/٦) .
(٢) نفس المصدر السابق (٢١٦/٦) .

الكُتَّاب الصحفيين الذين يكتبون في الصحف المحلية في ديارنا حيث أشاد في عمود في أحدى الجرائد بهذه الدورة البرشلونية وقال إن ما يقارب من ١٥٠٠ مليون يتابعون[1] هذه الدورة في العالم وتنقل على الهواء مباشرة بكافة اللغات واللهجات ولا شك أن من بين هؤلاء المتابعين لتلك الدورة عدداً لا بأس به من المسلمين الذين يضيعون أوقاتهم فيما لا يفيد . بل يعود عليهم بالضرر في دينهم حيث يرون الأفخاذ العارية والسيقان وغيرها من خلال ما ينقله التليفزيون .

وعلى صعيد آخر تجد حشود هائلة على دور السينما والمسارح والشواطئ (ذلك على حد زعمهم) للاستمتاع وملء الفراغ . وأينما وليت ويممت وجهك في أي مكان تجد الحشود الهائلة التي تتجمع على أمور لا قيمة لها ولا من ورائها فائدة .

نسأل الله تعالى لقومنا إصلاحاً وتنظيماً وإلا فإن الحالة تؤذن بهلاك عاجل أو آجل ولا يظلم ربك أحداً .

إن الله تعالى حليم ومع حلمه سبحانه إلا أنه شديد العقاب

---

(١) جريدة الأهرام القاهرية بتاريخ الاثنين ١٤١٣/٢/١ هـ من مقال لأحمد بهجت .

وسريع الحساب لا راد لأمره ولا معقب لحكمه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . الجنة أعدها ولو كان الداخل لها عبداً حبشياً والنار أعدها ولو كان الداخل لها حراً قرشياً .

اشتراط بعض العلماء شروطاً لمن يحضر مجالسهم :

وإذا قلبنا النظر في مجالس العلماء التي كانت تعقد قديماً نلاحظ أن بعضهم كان يشترط شروطاً لمن يحضر مجالسهم .

فمن ذلك ما ورد في ترجمة أبي إسحاق الفزاري الإمام العلامة إبراهيم بن محمد بن الحارث . قال ابن مسهر رحمه الله « قدم أبو إسحاق دمشق فاجتمع عليه الناس ليستمعوا منه فقال لابنه أخرج إلى الناس فقل لهم من كان يرى القدر فلا يحضر مجلسنا ومن كان يرى رأي فلان فلا يحضر مجلسنا ، ومن كان يأتي السلطان فلا يحضر مجلسنا فخرجت فأخبرتهم »[1] يتبين لنا من هذا الأثر الوارد عن أبي إسحاق الفزاري رحمه الله ما كان العالم يتمتع به من الصدع بالحق فانظر إلى الفقرة الأخيرة وتأملها كيف صدع بها أبو إسحاق رحمه الله ولا تستغرب من

---

(١) تذكرة الحفاظ (٢٧٣/١) .

هذا فإن مخالطة السلطان والتردد على بابه أمر حذر منه السلف كثيراً ويشتد الخطب ويعظم إذا كان المخالط للسطان بعض العلماء لا سيما إذا ترك الانكار عليه وداهنه . فإن هذا من أعظم الخطوب والبلاء .

قال العلامة ابن الجوزي رحمه الله[1] « ومن تلبيس إبليس على الفقهاء : مخالطتهم الأمراء والسلاطين ومداهنتهم وترك الانكار عليهم مع القدرة على ذلك وربما رخصّوا لهم فيما لا رخصة لهم فيه لينالوا من دنياهم غرضاً فيقع بذلك الفساد لثلاثة أوجه :

الأول : الأمير يقول لولا أني على صواب لانكر عليّ الفقيه وكيف لا أكون مصيباً وهو يأكل من مالي ؟

الثاني : العامي أنه يقول لا بأس بهذا الأمير ولا بماله ولا بأفعاله فإن فلاناً الفقيه لا يبرح عنده .

الثالث : الفقيه فإنه يفسد دينه بذلك وفي الجملة فالدخول على السلاطين خطر عظيم لأن النية قد تحسن في أول الدخول

(١) تلبيس إبليس ص ١٣٤ .

ثم تتغير باكرامهم وانعامهم أو بالطمع فيهم ولا يتماسك عن مداهنتهم وترك الانكار عليهم وقد كان سفيان الثوري رضي الله عنه يقول « ما أخاف من اهانتهم لي وإنما أخاف من إكرامهم فيلين قلبي إليهم »[1] .

ورحم الله ميموناً بن مهران حيث يقول « ثلاثة لا تبْلَوَّن نفسك بهم : لا تدخل على السلطان وإن قلت آمره بطاعة الله ، ولا تُصغيَّن إلى هوى فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه ، ولا تدخل على امرأة ولو قلت أعلمها كتاب الله »[2] .

هذا ولا ينفي أن يكون العالم الذي يجد من نفسه القوة ويأمن على نفسه فتنة السلطان واغرائه ، أقول لا مانع من أن يأمره وينهاه وقد ورد ذلك عن بعض السلف رضوان الله عليهم . ويدل عليه حديث البخاري الذي ساقه بسنده إلى سالم قال « كتب عبد الملك إلى الحجاج أن لا يخالف ابن عمر في الحج فجاء ابن عمر رضي الله عنه وأنا معه يوم عرفه حين زالت الشمس فصاح عند سرادق الحجاج فخرج وعليه ملحفة

---

(١) سبحان الله ما أجمل قول سفيان هذا ولعل فيه عبرة لمن يعتبر وعظة لمن يتعظ .
(٢) أوردة في السير (٥/٧٧) .

معصفرة ، فقال مالك يا أبا عبد الرحمن ؟ فقال الرواح إن كنت تريد السنة . قال هذه الساعة ؟ قال نعم ؟ قال فانظرني حتي افيض على رأسي ثم أخرج فنزل حتى خرج الحجاج فسار بيني وبين أبي فقلت إن كنت تريد السنة فاقصر الخطبة وعجل الوقوف ، فجعل ينظر إلى عبد الله ، فلما رأس ذلك عبد الله قال صدق » .

والشاهد من الحديث هو إتيان ابن عمر لسرادق الحجاج ولذلك قال الحافظ ابن حجر وهو يعدّد فوائد الحديث « فيه اقامة الحج إلى الخلفاء ، وأن الأمير يعمل في الدين بقول أهل العلم ويصير إلى رأيهم وفيه مداخلة العلماء السلاطين وأنه لا نقصة عليهم في ذلك وفيه فتوى التلميذ بحضرة معلمه عند السلطان وغيره ، وفيه تعليم الفاجر السنن لمنفعة الناس ، وفيه احتمال المفسدة الخفيفة لتحصيل المصلحة الكبيرة يؤخذ ذلك من مُضّي ابن عمر إلى الحجاج وتعليمه وفيه الحرص على نشر العلم لانتفاع الناس به وفيه صحة الصلاة خلف الفاسق »[1] .

وأقول قول الحافظ وفيه مداخلة العلماء والسلاطين أن ذلك

---

(١) فتح الباري (٣/٥٩٨) .

ليس لكل عالم بل من يرى من نفسه القوة والأمن على نفسه . وأين مثل ابن عمر رضي الله عنه لا سيما في هذه الأعصار .

وفي ترجمة أبي الأحوص سلام بن سليم الحنفي قال « العجلي كان ثقة صاحب سنة واتباع وكان إذا ملئت داره من أصحاب الحديث قال لابنه أحوص يا بني قم فمن رأيته يشتم أحداً من الصحابة فاخرجه ما يجيء بكم إلينا »[1] .

وصف هيئة العلماء في تلك المجالس :

لقد كان العلماء في تلك المجالس يحرصون غاية الحرص على المظهر تعظيماً لله ولرسوله ﷺ ، فقد كانوا يلبسون الثياب النظيفة ، ويتطيبون ، ويجلسون بسكينة ووقار في هيئة حسنة وكان منهم من يتعمد لبس الفاخر من الثياب لما يرى من نظر الخلق لا سيما اعداء الدين . كما كان العلماء يحدثون الناس على طهارة ويستحبون ذلك .

قال الحسن البصري رحمه الله كانوا يستحبون ألا يذكروا الله عز وجل إلا على طهارة[2] .

---

(١) السير للذهبي (٢٨٢/٨) .

(٢) تذكرة الحفاظ (٨٥٩/٣) .

وفي ترجمة الحافظ العلامة القاضي محمد بن أحمد بن إبراهيم بن سليمان الأصبهاني العسال صاحب التصانيف ، أنه كان لا يمس جزءاً إلا على طهارة[1] .

وقد مر بنا كيف كان الإمام مالك يستعد لدرس العلم حيث كان يلبس الثياب الفاخرة ويتطيب .. وغير ذلك .

وفي ترجمة شيخ الإسلام أبو إسماعيل الهروي . قال عبد الغافر بن إسماعيل كان أبو إسماعيل الهروي إذا حضر المجلس لبس الثياب الفاخرة ، وركب الدواب الثمينة ، ويقول إنما أفعل هذا اعزازاً للدين ، ورغماً لاعدائه حتى ينظروا إلى عزي وتجملي فيرغبوا في الإسلام ، ثم إذا انصرف إلى بيته عاد إلى المرقعة[2] .

ويتبين من هذا أنه لبس الفاخر من الثياب للعالم ليس من الكبر ولا من لباس الشهره وأما ما نقله الذهبي رحمه الله في ترجمة شهر بن حوشب العالم قوله « من ركب مشهوراً من الدواب ولبس مشهوراً من الثياب أعرض الله عنه وإن كان كريماً » .

---

(١) تذكرة الحفاظ (٨٨٧/٣) .
(٢) تذكرة الحفاظ (١١٩٠/٣) .

أقول قد فصَّل الذهبي هذا القول بعدما أورده فقال رحمه الله [القائل الذهبي] قلت ومن فعله ليعز الدين ، ويرغم المنافقين ويتواضع مع ذلك للمؤمنين ويحمد رب العالمين فحسن ومن فعله بذخاً وتيهاً وفخراً أذله الله وأعرض عنه فإن عُوتِب وَوُعِظَ فكابر وأدعى أنه ليس بمختال ولا تياه فاعرض عنه فإنه أحمق مغرور بنفسه[1] .

وكان العلماء يحثون الناس على طلب العلم والحرص عليه ودوام تحصيل العلم وكانوا يضربون لهم المثل بأفعالهم .

فقد رؤي في يد الإمام أحمد محبرة فقيل له إلى متى المحبرة ؟ قال إلى المقبرة .

وإليك كلمة لسهل بن عبد الله التستري رحمه الله فقد روى في كتاب « ذم الكلام » لابن إسماعيل الانصاري الهروي الملقب بشيخ الإسلام سئل سهل بن عبد الله إلى متى يكتب الرجل الحديث ؟ قال حتى يموت ويُصِبّ باقي حِبرِه في قبره . وكان يقول إذا رأى أصحاب الحديث اجتهدوا أن لا تلقوا الله إلا ومعكم المحابر[2] .

(١) السير (٤/٣٧٥ ، ٣٧٦) .
(٢) السير (١٣/٣٣٠ ، ٣٣١) .

وكان الإمام يحيى بن معين رحمه الله يقول « إذا رأيت الرجل يخرج من منزله بلا محبرة ولا قلم يطلب الحديث فقد عزم على الكِذبة »[1] .

وإلى هنا تنتهي الرسالة هذا والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) السير (١٦/١٨١) .

فهرست

الموضـــــوع	الصفحة